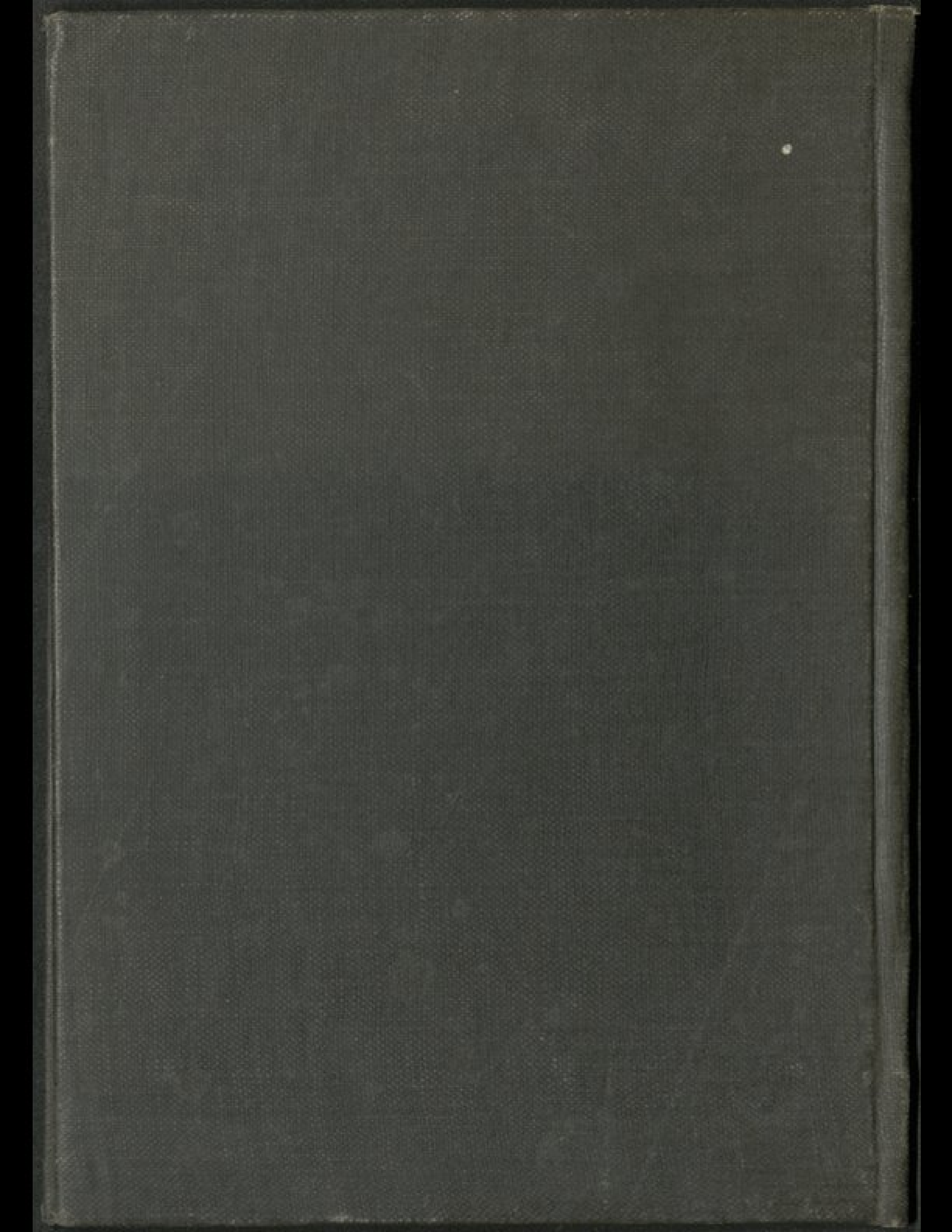


Gift, [illegible] [illegible] Jan. 1948

محاضرة تاريخية

في الدين والعلم والادب

القاها الاستاذ نعوم طاماز

في ندوة الاتحاد الارثوذكسي بمصر

في يوم الخميس الواقع في ١٧ نيسان سنة ١٩٤٧

بحضور كل من اصحاب السيادة والوقار

المطران بطرس كامل مدور

والارشمندريت ملاتيوس صويتي والارشمندريت يوحنا شنياره

ولفيف من الاكليرس من عموم الطوائف

ونخبة من العلماء والادباء والاعيان

المطبعة المخلصية

دير المخلص - قرب صيدا (لبنان)

الديباجة

اسيادي اصحاب الفضل والفضيلة الاجلآء من احبارٍ وكهانٍ وعلمآء ،

سيداتي وآنساتي ، ايها الحضور الكرام ،

اشكركم على تجشمكم العنآء ، وتشريفكم هذا المحفل المبارك بمن حوى ، مما يشجعني ، على قلة بضاعتي ، ان اسمعكم من التأريخ عقودَ ما عليه قد انطوى ، آملاً ان اكون لطرق الصواب منتهجاً وباحكام التأدية مبتهجاً . راجياً من الناقد الكريم غض الطرف عمّا يراه من التخليط والعثار ، سبحانه وحده الذي تنزه عن العيب والعار ، فعليه الاتكال واليه المآل .

المقدمة

المصريون هم زعمآء النهضة النسكية ومنشؤوها

بين افول شمس المئة الثالثة ، وانبلاج صبح المئة الرابعة .

وعددهم اربعة قديسين

بولا — وانطونيوس — ومكاريوس — وباخوميوس

فلهم المجد الاثيل ، وعنهم اخذ الغرب الدليل

للنصارى المصريين الامجاد ، عدد وافر من رجال الله نساكٍ وزهاد ، نشروا المسيحية ، في الديار المصرية ، وخدموا الانسانية ، بتعاليمهم التقوية ، مدة ستة قرون ، من عهد مرقس الرسول ، الى المئة السابعة . فخلدوا لهم ذكراً مجيداً في هذه الدنيا ابداً ، وخُلِدوا في الفردوس السماوي سرمداً . ففي دهرهم بلغت اديرة الرهبان بضع مئاتٍ عداً ،

والكنائس بضعة الوف عدداً ، والنصارى عشرة ملايين احصاء ، (وقيل عشرين مليوناً في كتاب تاريخ الامة القبطية المطبوع في سنة ١٩٣٢ بالصفحة ١٩٨)

ولهذا فقد صرح حقاً بتلك الشذور الذهبية، احد معلمي المسكونة، ابونا الجليل في القديسين ، يوحنا الذهبي الفم ، المتوفى في سنة ٤٠٧ اذ قال :

« لو قصدت يا هذا برية مصر في يومنا ، لوجدتها تفوق الحدائق نضارةً ، بزهور قديسيها ، وجمهور نساكها ... فالسماء بنجومها وكواكبها ، اقل بهاء من مناسك مصر وصوامعها [١] » .

وقال الامام علي بن ابي طالب :

« طوبى للزاهدين في الدنيا ، الراغبين في الآخرة ، اولئك قوم اتخذوا الارض بساطاً وترابها فراشاً ، وماءها طيباً ... » الى ان قال: « ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح [٢] » .

---

(١) عن كتاب « بستان الرهبان » بالسريانية طبعة الاب بيجان صفحة ٩٩٦ – ٩٩٧

(٢) عن كتاب نهج البلاغة صفحة ٨٧ من الجزء الثاني المطبوع ببيروت بالمطبعة الادبية سنة ١٣٠٧ هـ

جاء في كتاب « تاريخ البطاركة » لأشهر مؤرخي القرن العاشر ساويرس بن المقفع مخطوط ومحفوظ في دار بطريركية الاقباط الكبرى بالقاهرة تحت رقم ١٣ تاريخ ، بالصفحتين ٨٦و٨٧ مايلي :

« في ايام اندرونيقوس البطريرك السابع والثلاثين الاسكندري (القبطي سنة ٦١٦-٦٢٣م). جاء كسرى بقوة عظيمة واخذ مصر وتسلط عليها وجعل اهتمامه ان يفتح المدينة العظمى الاسكندرية وكان هناك في هاناتون الواقعة غرب المدينة وعلى بحيرة مريوط ٦٠٠ ديراً عامراً مثل ابراج الحمام . وكان جيش الفُرس قد احاط بها من غرب الديارات ولم يُبقي للرهبان ملجأ فقتلوا جميعهم بالسيف الا قليلاً منهم اختفوا وجميع ما كان هناك من الاواني والاموال نهبه الفُرس واخربوا الديارات » .

وقرأنا في كتاب « دليل المتحف القبطي » الجزء الثاني المطبوع بالمطبعة الاميرية بالقاهرة في سنة ١٩٣٢ وضعه جمهرة من اكبر المؤرخين ، بالصفحة ٢١٢ ما يلي :

أُحصي في سنة ١٢٠٠ م عدد الاديرة فكان ٨٣٤ والكنائس ٢٠٨٦ (ولم يذكر مقدار ما اندثر منها بفعل الخراب والتخريب قبلاً ويُقدر باضعاف هذا العدد) . وفي سنة ١٦٣٠ كان العدد ٧٦ ديراً و ١٩٣ كنيسة . وفي سنة ١٩٠٠ كان سبعة اديرة و ٤٧٠ كنيسة .

وورد بكتاب « القبط » تأليف البحاثة بالتاريخ المدقق الشدياق جرجس فيلوثاوس عوض، طبع بالمطبعة المصرية الحديثة بالقاهرة في سنة ١٩٣٢ في جملة مواضع من هذا الكتاب وخصوصاً بالصفحة ١٧٢ ما يُفيد ان عدد النصارى كان قبل الفتح يُقدر بثلاثين مليوناً واكثر .

واذا نظرنا اليوم في كتاب « فهرس مواقع الامكنة » عمل مصلحة المساحة المصرية طبع بالمطبعة الاميرية سنة ١٩٣٢ بالصفحتين ٦٤ و ٦٥ نجد اكثر من سبعين بلدة مأهولة وبليدة حقيرة اسمها دير (كذا) كقولك : دير ماري جرجس ودير ماري بطرس ودير سمعان ودير العذارى الخ . ونجد في كتب العرب اسماء عديدة لاديرة بالديار المصرية ولكن كلها اسم بلا جسم بل كالسراب الذي يرى عن بعد انه ماء وليس بماء .

وكفى ما كتبه بالفرنسية المؤرخ الثبت المغفور له سمو الامير عمر طوسون باشا ، ما لم يخرج عما تقدم الا في تقديره عدد القبط بالقرن السابع الميلادي بثمانية عشر مليوناً فقط .

زد على ذلك مؤلفات عظيم الباحثين في عصرنا هذا الشماس كامل صالح نخله عضو لجنة التاريخ القبطي وحجته ، الذي كتب وجمع فاوعى ومعظم مؤلفاته واجلها لم تطبع بعد ، اللهم الا كتاب « تاريخ وجداول بطاركة الاسكندرية القبط » طبعه في سنة ١٩٤٣ .

اقول واقطع : لقد ضلّ المؤرخون الفرنج الذين كتبوا بلغاتهم ولم يأخذوا عن الكتب البادي ذكرها او خالفوها .

الفصل الاول

في منشأ الزهد والدير

قيل : اول من اعتزل للزهد عن الدنيا «الأسينيون» الاسرائيليون، وهم الذين يضايقون انفسهم بالصيام والذين ينقطعون بضع ساعات نهاراً وليلاً الى التضرعات والصلوات ، والذين يبذلون اموالهم وايامهم في سبيل اعالة الفقرآء ، وعيادة المرضى ، والاعتناء بهم . وفي رواية اخرى انه كان في ضواحي الاسكندرية قوم من اليهود عُرفوا بتأملي الالهيات، ويقال لهم بالافرنسية Thérapeutes ، تركوا كل ما يمتلكون من متاع الدنيا وأووا الى التلال المجاورة رجالاً ونساء ، كل جنس على انفراد ، يقيمون فيها الصلوات . فاخذ المصريون المسيحيون عنهم هذه الفضيلة ، فكان « الاسينيون » من النصارى اولاً ، يسكنون المدن ، ويلبسون اثواباً قاتمة اللون مخصوصة بهم كاثواب الحكمآء القدمآء . وكانوا يقفون وقت الصلاة بين خَدَم الدين والشعب .

والذين يفوقون هؤلآء بالتعبد ، والانقطاع عن الدنيا ، الى الله سبحانه وتعالى ، ومضايقة الجسد ، والاكتفاء باليسير جداً من اسباب المعاش ، يُسمّون بالنسّاك والحبسآء .

قيل ان التنسُّك ظهر في الكنيسة منذ اوائل عهدها . فاننا نرى في التاريخ البيعي قوماً من افاضل الرجال والنسآء زهدوا في الدنيا وانقطعوا الى عبادة الباري تعالى متجردين عن كل مال العالم وملاذه الباطلة . وكان هؤلاء الزهاد يعيشون في المدن او بجوارها ، ويمارسون اعمال البر في الخلوة ويزاولون اعمال الصلاح .

الدير

الديرُ لغةً : بيت يتعبد فيه الرهبان . ولا يكاد يكون في المصر الاعظم، وانما يكون في الصحارى ورؤوس الجبال. فان كان في المصر، كان كنيسة او بيعةً . قال الجوهري : ودير النصارى اصله الدار والجمع اديار واديرة وديرة وديارات وديورة وغيرها . والنسبة : ديري وديراني اي صاحب الدار ولعله بعد تسمية الدار به خصص بالموضع الذي يسكنه الرهبان وصار علماً له ويسمى الآن مسكن الرهبان والراهبات، واسمه الافرنجي(Monastère)يوناني الاصل ومعناه بيت اعتزال، واسمه الآخر (Couvent) لاتيني الاصل ومعناه جمعية .

لم تكن الاديرة في اول الامر الآ في محال منفردة، ولما كانت العزلة التامة لا تخلو من الاخطار فقد أجيز بناؤها خارج اسوار المدينة .

قيل ان المصريين هم اول من سمى لفظة مونستيريون اليونانية (Μοναστήριον) ومعناها دير المنزل العام (للاسينيين) ثم عربت بلفظة آسي ومنها المتأساة .

والمصريون هم اول من ابتنى الاديرة في الجبال والصحارى في الجيل الثالث، حتى اصبح الترهب عندهم نظاماً دينياً نقله عنهم مسيحيو الغرب .

فسمي الواحد منهم Ascète, Anachorète, Solitaire, Cénobite

وباللاتينية Asceta, Anachoreta, Solitarius, Cœnobita

وباليونانية... Ἀσκιτικός, Ἀναχορήτης, Μοναχός, Κοινωβίτης

وبالعربية : السائح ، والراهب ، والناسك ، والزاهد ، والحبيس ، والمنعزل ، والمعتزل ، والمختلي ، والمنفرد ، والمتروض ، والمتروي ،

والمتوحد ، والمتواري .

فلفظة راهب لغةً : الخائف . يقال : ارهبته فتوارى . وعند النصارى : مَن تبتَّل لله ، واعتزل عن الناس ، الى بعض الاديرة طلباً للعبادة ، واختار الفقر طوعاً .

وكان الفلاحون في بعض الاماكن المجاورة للاديار يحصلون على معاشهم منها ويبنون اكواخهم في جوارها .

امتازت الاديرة بصلوات رهبانها وصيامهم وتقشفاتهم كما امتازت بالاشغال التي هي الغاية الكبرى من الجمعيات الرهبانية . فجعل لكل راهب شغل عقلي او يدوي بحسب اقتداره . ففلحوا ما بار من الارض ونسخوا الكتب القديمة ودرسوا وعلموا . فصار معظم الاديار مدارس كبيرة للاهوت وعلوم أُخر . وأُمنت بها المعارف القديمة طوارق الزمان . فجميع الاساقفة والعلماء كانوا من تلامذتها . وكان بعض الرهبان في الاديرة ، مضطرم الغيرة والحمية ، عاكفاً على الاعمال ، زاهداً في الدنيا ، منقطعاً عنها ، الى التعبد والقنوت .

وأجريت في بعض الاديرة القوانين في ٧٣ فصلاً . منها تسعة في فروض الاخوة الادبية والاحسانية ، وثلاثة عشر في الفروض الدينية ، وتسعة وعشرون في الانتظام والذنوب والتأديب ، وعشرة في ادارة الاديار الداخلية ، واثنا عشر في الضيوف والرهبان إبان السفر وغير ذلك .

واعظم الفروض الرهبانية الادبية ثلاثةٌ : نكران الذات والطاعة والشغل . وكان في البعض منها الانقطاع عن الشغل . وعند علماء المذاهب التي تجيز الرهبانيات ان فرض الشغل على الرهبان لازم .

ولما انتقلت الرهبانيات من الصحارى الى المدن ، وبُعيد ذلك ،

اخذ بعض الكُتّاب الدينيين يتشكّون من الذين كانوا يأوون اليها وينخرطون في سلكها ، طلباً لراحة البال والجسم ، وقالوا انه لم يكن النسك محبوباً كثيراً عند بعض آباء الكنيسة الاولين فانهم قصدوا بترويج الرهبانيات الحصول على الفضائل الناشئة عن الاعتزال الموقّت، لتربية رجال بهم الاهلية لاذاعة التعاليم الدينية بين اهل المدن . ولم يكونوا ينظرون بعين الرضى التام الى الذين كانوا يضايقون اجسامهم باعمال غير عادية ويؤلمونها في سبيل العبادة .

الفصل الثاني

ذكرت في المقدمة اربعةً من رجال الله هم قديسون بلا نكير ؛ قاموا بين الجيلين الثالث والرابع ، باعمالٍ جُلّى شهد لهم بها الذهبي الفم . فكانوا نبراساً لامعاً استنار به كل من تعقّب خطاهم واثتسى بطريقتهم في فضيلة الزهد الى يومنا . وها انا ذاكر من سيرة كل واحد منهم لمحة موجزة لضيق المقام فاقول :

اولا : بولا الناسك
ويدعى بولس الطيبي او الصعيدي وبالفرنسية :
Paul de Thèbes, ou Paul le Simple
(وتذكاره في كنيستنا الشرقية يقام في ١٥ يناير)

ولد بولا في مدينة طيبه بالصعيد، سنة ٢٢٨ وسمي اول السياح . ولما بلغ خمس عشرة سنة من عمره ، مات والداه وتركا له ولاخته اموالهما ثم وقع اضطهاد من الوثنيين على المسيحيين قاسى هؤلاء من جرائه الامرّين فاختفى بولا في منزل منفرد . وكان زوج اخته وثنياً فحدثته نفسه ان يشي به الى الوالي ، لكي يستأثر بكل الميراث . وبلغ الخبرُ بولا ففرَّ الى البرية ، آملًا ان يعود بعد زوال الاضطهاد ، ولكنه استمر في عيشته النسكية ولم يرجع الى المدينة . فقال في ذلك عن نفسه : « ان الظروف قد هيأت لي طريق الفضيلة » . وكان قد اهتدى الى مغارةٍ فيها نبع ماءٍ صافٍ واماها نخل كثير . فاقام هناك مدة حياته مثابراً على الصلاة والتأملات الروحية . يغتذي من تمر احدى النخلات ويشرب من ماء النبع ، ويكتسي بخوص النخلة مجدولاً . وقضى على هذه الحالة تسعين سنة . وقبيل رحيله من هذا العالم ، زاره الانبا

انطونيوس بالهام الهي . ولما مات ، كفنه ودفنه . وكان عمره مئة وثلاث عشرة سنة . ويوجد دير على اسمه لا يزال فيه عدد من الرهبان الى اليوم بجبل القلزم على مقربة من البحر الاحمر ، في نفس الموضع الذي عاش هو فيه . وللدير ٧٠٠ فدان بزمام بلدة بُوش بمديرية بني سويف وعدة عقارات بالقاهرة .

ثانياً : الانبا انطونيوس

S^t. Antoine Père des Solitaires

(وتذكاره في كنيستنا الشرقية يقام في ١٧ يناير)

ولد انطونيوس في سنة ٢٥١ في بلدة قمن العروس بمركز الواسطى باقليم بني سويف ، من ابوين مسيحيين مثريين ، وتربّى تربية مسيحية منذ نعومة اظفاره . وفي العشرين من عمره مات ابواه . فذهب ذات يوم الى الكنيسة وسمع فصلاً من الانجيل يقرأ وفيه قول السيد المسيح للشاب الغني : « ان اردت ان تكون كاملاً ، فاذهب وبع كل شيء لك واعطه للمساكين فيكون لك كنز في السماء وتعالَ اتبعني » (متى ١٩ : ٢١) فخرج على الفور وباع املاكه ووزع ثمنها على الفقراء ، مستبقياً بعضه لشقيقته الصغرى وانفرد في البرية الشرقية للعبادة والتنسك ، وسكن قبراً قديماً مدة من الزمن ثم اوغل في البرية فوجد برجاً قديماً اتخذه مأوى له مدة عشرين سنة .

سمع الناس بامره وذاعت بينهم اخبار تقواه وفضيلته ، فقصدوه زرافات ووحداناً ، فلم يشأ ان يخرج اليهم ، فاضطروا الى هدم مدخل البرج وتمكنوا من مقابلته ، فاخذ يعلمهم ويصلي من اجل مرضاهم . ولما أمّ البرية كثيرون ابتنى لهم الاديرة ، وسن القوانين التي يسيرون عليها في حياتهم النسكية .

اتصل خبره بالملك قسطنطين فارسل اليه يدعوه لزيارة القسطنطينية كي يراه ، فاكبر الرهبان هذه الدعوة وزهوا بها وألحوا عليه بأن يجيبها. اما هو فاكتفى بأن رد عليه برسالة .

ولما وقع اضطهاد القيصر مكسيميانوس الوثني على النصارى ، شخص انطونيوس الى الاسكندرية ، لتقوية المسيحيين على احتمال الاضطهاد . ومن هنا يبتدىء تاريخ السنة القبطية المعروفة بتاريخ الشهداء (وهي سنة ٣١١ ، ٣١٢ للتجسد الإلهي) .

وفي سنة ٣٠٥ عاد مرة ثانية الى الاسكندرية لمحاربة بدعة آريوس وكان عمره ١٠٤ سنين . وبعد رجوعه منها توفي ودفن في كنيسة الدير الذي اسسه .

وله دير كبير تبلغ مساحته عشرين فداناً بجبل القلزم قريباً من دير الانبا بولا حيث الكنيسة التي دفن فيها جسده . ولهذا الدير اكثر من الف فدان ببوش ، غير العقارات الكثيرة في القاهرة .

ثالثاً : الانبا مكاريوس المصري
S^t. Macaire d'Egypte, Solitaire
(وتذكاره في كنيستنا الشرقية يقام في ١٩ يناير)

ولد في سنة ٣٠٠ . ولما بلغ اشده زوّجه والده بغير ارادته . غير ان عروسه ماتت قبل ان يعرفها . وبعد ذلك بقليل مات والداه ، فوزع ما تركاه له على المساكين وانفرد بكوخ صغير بظاهر بلدته متعبداً . ثم زاره القديس انطونيوس الذي البسه الاسكيم الرهباني . وذهب مكاريوس الى قفار وادي « هبيب » في وادي النطرون المعروف ببرية «شيهَت» حيث اسس ديراً معروفاً الآن بدير « البراموس » . ولما التف حوله عدد من الرهبان ابتنى لهم الدير المعروف الآن بدير « ابي مقار »

وعاش عيشة التقشف الصارم .

ولما وقع اضطهاد الملك فالنس الاريوسي على الارثوذكسيين ، لقي هذا القديس الشدائد في سبيل دفاعه عن الايمان. ونفي الى جزيرة أنس الوجود ، فشفى هناك ابنة كاهن وثني من مرض ألمّ بها . فآمن الكاهن وكل سكان الجزيرة بالمسيح على يده .

ثم عاد من المنفى ، وقضى ايامه في هذا العالم معلماً ومرشداً للرهبان الى ان رقد بالرب عن تسعين سنة . وله خمسون رسالة وعظيّة .

رابعاً : الانبا باخوميوس

S[t]. Pacôme, Instituteur des Cénobites

(وتذكاره في كنيستنا الشرقية يقام في ١٥ مايو)

ويدعى ابا الشركة الرهبانية وزعيمها ورافع لوائها. لا يدانيه احد في هذا الثناء الطيب . ولبيان فضله هاءنذا ملخص تاريخ حياته وما اتى من جليل الاعمال في زمانه :

ان ترجمة القديس باخوميوس على اصناف ثلاثة : الترجمة الاولى هي اليونانية ، و كتبت بعد وفاة تلميذه الانجب ثادرس او (ثاودورس) بزمن قليل سنة ٣٦٨ . وقد ألفها احد الرهبان الذي لم يعرف القديس ، لكنه جمع اخباره من فم تلامذته ومعاصريه . ومن امعن فيها النظر وجد انها شاهد صدق ودليل ثُبت يوثق به. والترجمة الثانية هي القبطية، كُتبت اولاً باللغة القبطية الصعيدية ، نقلاً عن الترجمة اليونانية لافادة الرهبان الذين لم يكونوا يفهمون اليونانية. لكن الكاتب وهو راهب من رهبانية القديس باخوميوس زاد على الاصل عدة تفاصيل غريبة وفقاً لما كان يعهده في القوم من الغرام في عجائب الامور . ثم نقلت هذه السيرة الى اللغة القبطية المنفية لمنفعة الرهبان في اديرة اخرى. والثالثة هي السيرة

العربية نقلت اليها بعد الهجرة بزمن طويل في القرن الرابع عشر .

تولى المسيو اميلينو (Amélineau) طبع الترجمتين القبطية والعربية للقديس باخوميوس في باريس سنة ١٨٨٩ ولم ينصفه . وجاء بعده الذي اصاب في حكمه عن اعماله وبيّن فضله العظيم المستشرق الخوري لادوز (Ladeuse) في كتابه الذي طبعه في باريس سنة ١٨٩٨[1]

كانت ولادة باخوميوس في بعض مدن الصعيد سنة ٢٨٨ . وقال بعضهم سنة ٢٩٢ مسيحية[2] . وكان ابواه وثنيين فلما بلغ العشرين من عمره اضطره الولاة الى ان يُستكتب في الجندية . فاركبوه مع الرديف فلمّا نزل بهم الى مدينة إسنا . وكان هناك قوم من النصارى رأوه ورفقته في هذه الحالة السيئة فحنّوا لشبابهم ورثوا لاوجاعهم ، وساعدوهم في حاجاتهم . فعمل في قلب باخوميوس مثلُ هؤلاء المحسنين ، وتعجب من حسن صنيعهم اليه مع انهم لم يعرفوه . واستفسر عنهم ، فقيل له انهم « النصارى » يطلبون في ذلك وجه الله الكريم ممتثلين اوامر انجيلهم . فاحب باخوميوس ، ان يقرأ انجيلهم ليقتدي بسيرتهم . فما مر على الجند مدة حتى اطلق سراحهم فعاد الى وطنه وتفقّه في مبادىء الدين المسيحي ، واصطبغ بمياه المعمودية .

واول بلدة نزل فيها باخوميوس كان اسمها « كينوبسكيون »

---

(1) Etudes sur le Cenobitisme pakhomien, Fontemoin, Paris 1898.

(٢) هذا ما وجدناهُ بكتب القبط وكتاب « الكنز الثمين » للبطريرك مظلوم وكتاب بالفرنسية لمطران « تور » طبعه في ١٦ / ٤ / ١٩١٤ .

ولما نظرنا في كتاب « مروج الاخبار في تراجم الابرار » المطبوع بمطبعة اليسوعيين في بيروت سنة ١٨٨٠ تأليف الاب بطرس فرماج وجدنا : ان باخوميوس وُلدَ سنة ٢٧٥ وتوفي في ١٤ / ٥ / ٣٤٩ عن ٧٤ سنة . والله اعلم

(لفظة يونانية ومعناها مرعى الاوز ومحطتها اليوم اسمها الدابّة) وبالقبطية ، « شينسيت » ، وهي تعرف اليوم « بقصر الصياد » على ضفة النيل الشمالية ، بازاء « نجع حمادى » . واختياره هذا المكان للتنسك ، حمل بعض الكتبة على القول ان مولده كان فيه ، وليس الامر بثابت . واحتل خربةً كان الاهلون يدعونها « هيكل سيرابيس » وقضى فيها ثلاث سنوات . ثم انتقل الى مسافة قريبة من القرية ، حيث وجد شيخاً جليلاً وناسكا فاضلاً يدعى « بالبمون » طلب اليه ان يرشده في طريق الزهد ففعل وألبسه الاسكيم الرهباني .

واليكم باختصار ما خلّف من بديع الآثار ، وما قام به من جليل الاعمال ، وما شيد من عدد الاديار .

دير تابنّة

وكانوا يدعونه بالعربية « دوناسا » واليوم يدعى « دِشْنا »

دير تابنّة يعدُّه المؤرخون كمهد العيشة الرهبانية ، على طريقة القديس باخوميوس . واسمه بالقبطية « تابنّسي » ومعناها « نخيل الاله ايزيس » وهاك خبر هذا الدير كما ورد في ترجمتيه القديمتين .

بينما كان باخوميوس متنسّكاً تحت نظارة الشيخ الجليل باليمون المار ذكره اذ ألهمه الله ذات يوم ان يخرج الى البرية كمألوف عادته ، فهام على وجهه سائراً بين الادغال والاشواك حتى قطع بضعة اميال ، فوصل الى تابنة حيث جثا راكعاً وصلى الى الله ملتمساً منه ان يكشف له ارادته تعالى . وبقي مستحراً بالصلاة ساعات طوالاً حتى اتاه صوت من السماء يكرر على مسامعه هذه الاقوال : « جاهد الجهاد الطيب وامكث في هذا المكان وابنِ قلاية فيأتيك جم غفير من النساك

يتتلمذون لك ويسلكون تحت قيادتك طريق الكمال » .

علم باليمون برؤيا تلميذه باخوميوس ، فهلت الدموع من عينيه ملياً ثم صرخ : « بُنيَّ ألملك تتركني في شيخوختي بعد سبع سنوات قضيتها تحت طاعتي ، ولكن فلتتم مشيئة الرب على الدوام . فاذهب الى حيث يدعوك الله ولا اطلب منك سوى نعمة واحدة وهي ان تزورني مرة في السنة وانا كذلك افتقدك مرة في كل عام ، الى ان يدعوني الله اليه . فهلم بنا نذهب الآن الى تابنّة ، ونبتني لك فيها منزلاً » .

فتحفز باخوميوس للعمل وشمّر عن ساعد الجد وباشر بناء دير كافٍ لعدد غفير من الرهبان . وكان له اخ يدعى يوحنا يعينه في شغله . الّا انه كان يتعرّض له مراراً في سعة البناء وعظمته ، ولا يرى داعياً لمسكن رحب كهذا . غير ان رجل الله لم يصغ الى مقاله ، وانجز عمله كما عزم عليه سابقاً . ونِعْمَ ما فعل لان طالبي الكمال تقاطروا اليه من كل فج وأوب ، حتى ضاق بهم المقام مع رحبه ، وذلك ما حمله على تشييد اديرة اخرى سيأتي ذكرها .

ولما لجأ البطريرك اثناسيوس سنة ٣٤٦ الى جزيرة تابنة المار ذكرها لاقاه باخوميوس في جيش من الرهبان يرتلون المزامير .

دير فاو

لم يمر على القديس باخوميوس سوى بضع سنين بعد انشائه دير تابنّه حتى كثر عدد تلاميذه واضطر الى ان يبني لهم ديراً آخر اقامه في قرية على قول البعض وفي محل قفر على زعم غيرهم ، شمالي تابنّة في مكان يدعى « افوا » . اما اسم الدير الجديد فقد اختلفت الكتبة في كتابته . فان ترجمة القديس اليونانية تدعوه « برو » والترجمة القبطية « فُبوو »

والعربية « فاو » . وزاد هذا الدير وغا . وجعل القديس باخوميوس مقامه فيه حتى صار مركز بقيّة اديرته . وشيد كنيسة بديعة متسعة الارجاء ، طولها ١٥٠ ذراعاً ، وعرضها ٧٥ ذراعاً . ذكرها الشيخ ابو صالح الارمني احد كتبة القرن الثالث عشر في تاريخه المطبوع في اكسفورد صفحة ١٣١ . وبعد ان وصفها قال: « وجميع الصور التي فيها كانت فصّ زجاج مذهب وملوّن وعمدها رخام . هدمها الحاكم بامر الله ».

وهاك ما جاء في التاريخ من وصف هذا الدير : « كان للدير سور كبير مرتفع الجدران ، ولا يُدخل اليه الاّ من باب واحد . وكان الزائر اذا دخل الدير يجد اولاً منزل الضيوف ، ثم قريباً منه المعامل العمومية كالمطبخ والمطعم والتنور وغير ذلك من المصانع ، ثم منتدى الرهبان ، ومجلسهم العمومي ، ثم الكنيسة تفوق الابنية كلها علواً واحكاماً ، ثم اخيراً مقام الرهبان ، وهو عبارة عن بيوت شتى فيها قلالي متعددة يسكن كل راهب واحدة منها مع ردهة عظيمة يجتمعون فيها لأشغالهم العمومية . فتجد هذه الابنية العديدة اشبه بقرية تخطّها الازقة والشوارع وتزينها البنايات المنظمة ، بينها جنائن صغيرة يقوم الرهبان بفلاحتها ».

قلنا ان القديس باخوميوس جعل مركز الرئاسة العمومية في هذا الدير (دير فاو) وقد اتخذ منذ ذلك الحين في تدبير الرهبان ما شاع بعده من النظام والتدبير اعني انه جعل رئيساً عاماً على كل الرهبانية ورؤساء خصوصيين يطيعون الرئيس العام . وكان بقرب الرئيس العام وكيل يتولى تدبير الرهبانية في احوالها الزمنية يدعى ايكونوموس اي مدبر المنزل . ثم استُعملَتْ للمقتصد . وهذه الهيئة النظامية دخلت بعد ذلك في الغرب ، ثم شاعت حتى صارت اليوم تعمّ كل الرهبانيات

التي اتت بعدئذٍ.

كان الانبا ثاودورس رئيس دير تابنّة، بعد نهاية شغل الدير يسير كل يوم الى فاو ليواجه القديس باخوميوس ويسمع ارشاداته فيعود ويكررها على رهبانه.

جاء في رسالة كتبها الاسقف آمون للبطريرك ثاوفيل في حدود سنة ٤٠٠ عن هذا الدير ما هو : كان عدد الرهبان الذين تنسكوا لله في هذا الدير عديداً وروى صاحب ترجمة القديس باخوميوس العربية خبراً عجيباً يبين انفة القديس من البنايات الجليلة المنظر. وكان يوصي تلاميذه بألّا يتأنقوا من بعده في بناياتهم وان يكتفوا بالعمارات البسيطة.

ولما ألهم الله القديس باخوميوس ان ينشىء الاديرة المنظمة، واقام ديريه الاولين في تابنّة وفاو، قدم عليه من «شِينَسِيتْ» عابد قديس اسمه إبُونه كان رئيساً على جماعة من الرهبان الحُبَسَاء فتوسل إبونه اليه ان يقبله ورُهبانَهُ في طاعته ويجعل مقامهم ديراً على طريقته المستحدثة. فاجابه باخوميوس الى طلبته وذهب معهم الى «شينسيت» واقام هناك ديراً قانونياً اضحى بعد زمن قليل من اشهر اديرة القديس باخوميوس واعظمها شأناً واكثرها رهباناً، ويعرف الى الآن باسم دير «باليمون» على بُعد ثلاث ساعات من قصر الصياد. وفي ضمن هذا الدير ثلاث كنائس: الاولى مخصصة لذكر اسم الشهيد القديس مرقوريوس المعروف عند الاقباط «بأبي سَيفَين» وهي اجمل الثلاث واقدمها؛ تعلوها القباب العديدة وفيها من المعابد خمسة ترى فيها الهيكل داخلاً في الجدران مزداناً بضروب الزَين. — والثانية اقيمت تذكاراً للقديس باليمون وهي على مثال الاولى، انما اسوارها واطئة وقناطرها مقوّسة بخلاف تلك حيث الاسوار عالية والقناطر بيضاوية الشكل.

اما الكنيسة الثالثة فانها معبد فقط بُني اكراماً للعذراء . وقد اقيمت فوق سطح الدير . وقيل ان هذه الكنائس بنيت بعد ان شُيد الدير بزمن مديد وان الرهبان ليس لهم مقام في هذا الدير اليوم انما هو مزار يأتي اليه الاقباط ليتبركوا بزيارته ويسكنه كاهنان عالميان قبطيان ، وله شأن خطير لدلالته على مكان مقدس عرفه النصارى الاقدمون فبالغوا في اكرامه .

وقيل : كان الرهبان كلهم يجتمعون مرتين في كل عام في دير فاو . فكان الاجتماع الاول يعقد في عيد الفصح ليقيم الرهبان الاسرار المجيدة بما امكن من الابهة والرونق ويسمعوا ارشادات الرئيس العام . وكانوا يعمدون في ذلك الوقت الرهبان الموعوظين الذين لم يصطبغوا بالعماد قبل تلك المدة . اما الاجتماع الثاني فكان موقعه في ٢٠ مسرى (١٣ اوغسطس) للنظر في امور الاديرة الزمنية ولتوثيق عرى المحبة بين الرهبان . وكان الرؤساء الخصوصيون يؤدون الحساب وقتئذٍ للوكيل العام . ثم كان الاخوة يتسامحون بالذنوب ويقبّلون بعضهم بعضاً بقبلة السلام . وكان الرئيس العام ينتهز تلك الفرصة لتغيير الرؤساء اذا وجد داعياً لذلك ليجردهم عن التعلق المفرط بديرهم ، لئلا يظنوا انهم اصحاب مُلك لا وكلاء عليه .

وهنا يجدر بنا ان نبدي العجب اذ نرى في كنيسة فاو العظمى نحو خمسة آلاف راهب . وهذه الرواية ذكرها كاسيان في كتاب رسوم الرهبان . واما غيره فبلّغ هذا العدد الى أكثر من ذلك بكثير . هؤلاء الرهبان الكثيرو العدد نبذوا العالم وملاذه واجتمعوا هناك تحت طاعة رئيس واحد ليخدموا الله ويتجردوا للآخرة .

دير العذارى

(بناحية السايات التابعة لدشنا)

مما سُطِر في ترجمة باخوميوس ان اخته مريم اتته زائرة في احدى السنين وهو متنسك في تابنّة. لكن القديس الذي لم يكن يرضى مقابلة النسآء، ارسل اليها البواب يبلغها: « ان لا يسؤك يا اخيتي ألا تشاهدي وجهي و كفاكِ ان تعرفي اني حي سالم فهيا انظري يا أخية لعل الله يدعوكِ الى الزهد بالعالم والعيشة النسكية فان رضيت بذلك ارسلت بعضاً من رهباني يبنون لك ديراً بعيداً من هنا. »

فاذرفت مريم اخته الدموع لدى سماعها هذا الكلام ثم لبّت دعوة اخيها. فبنى لها ديراً في عبر النهر دعي دير العذراى. وتواردت اليه الفتيات ليتجردن لخدمة الله. و كن يتبعن قانون القديس باخوميوس. وكان وليُّ الله قد جعل لهن مرشداً احد رهبانه المدعو بطرس وكان شيخاً جليلاً صالحاً. وكان بعض الاخوة يقيمون الرتب الدينية في كنيسة الدير ويفلحون اراضيه لكنهم كانوا يعودون في المسآء الى تابنّة. ولم يسمح لهم ان يأكلوا طعاماً عند الرواهب.

اما العذارى فكنَّ ينسجن اثواب الرهبان ويخطنها من الكتان والصوف اللذين يرسلهما اليهنَّ الوكيل الاكبر (الايكونوموس).

دير طبيو

بعد انتشار العيشة النسكية على يد باخوميوس ، سمع بذكره رجل تقي شريف الحسب والنسب اسمه بترونيوس كان قد ابتنى لنفسه ديراً يسمى « طبيو » في احد املاك اسرته الواسعة فارسل الى القديس رسالة هذا مضمونها : « فلتشملنا محبتك بنظرها ولتتفضل

الى حقارتنا لكي نستظل نحن ايضاً في حمى هذه العيشة النسكية التي اوحى بها اليك السيد المسيح » فاجاب القديس باخوميوس سؤْلَ بترونيوس ونظم ديره في سلك اديرته . وكان بترونيوس قد اوقف كل ارزاقه على هذا الدير . فتولى امره مدة الى ان رأسه باخوميوس على دير « طسميني » بقرب اخيم . واقام ابولونيوس مقامه في طبيبو التي تدعى اليوم بلدة « الطواوى ».

دير توموشينس (ويدعى مونشوسيس)

كان منسكاً لجماعة من الرهبان المتفردين . فاتفقوا مع رئيسهم يونان على ان يدخلوا تحت قانون القديس باخوميوس . فكتبوا اليه في الامر فاجاب ملتمسهم . وهذه ثالث جماعة من الرهبان انضوت الى رهبانية القديس باخوميوس .

اخبر صاحب الترجمة القبطية ان القديس كان يوماً في دير فاو فاتاه عند المساء ساع يعلمه بان احد الرهبان في توموشينس على وشك النزاع وهو لم يُصبَغ بعد بماء المعمودية . فسار باخوميوس من ساعته مع تلميذه تاودورس فمشى نصف ليلتهِ حتى وصل الى توموشينس (وهي تبعد عن فاو حوالي ٢٥ كيلومتراً او ٣٠ وبينهما النيل) . فلما دخل الدير رأى ملاكين نزلا من السماء ليعمدا الراهب المنازع . انتهى .

والسائر من هذا الدير الى جهة اخيم يجد آثاراً عدة من الديارات ومنها ما كان يدعى دير « طاسا » وبالقبطية طسي « Tsi » .

دير اخيم

كان اسقف اخيم المدعو آريوس أحب ان يقرب الرهبان من مدينته . فاعطاهم ارضاً قريبة من اسوار المدينة . فعمر القديس

باخوميوس ديراً كبيراً عرف باسم دير « شمين » او « اشميم » . ثم عربته العرب بدير « اخيم » . وهي المدينة التي دعاها اليونان « بانوبوليس » اي مدينة « الاله بان » . وقد تكلف القديس باخوميوس على ابتناء هذا الدير عرق القِربة لما وجده في بعض اهل المدينة من المقاومة . وكان من جملة هؤلاء قوم من المتفلسفين كانوا يجادلون الرهبان ويعرضون عليهم المشاكل والاحاجي ليمرقلوهم ويزدروا بهم . فاقام القديس في دير اخيم رجالًا متضلعين بالعلوم الدينية ليكسروا من زهوهم . وقد جاء في ترجمة القديس اليونانية بعض هذه المشاكل وهي : سأل بعضهم الانبا ثاودورس : من هو الانسان الذي مات ولم يولد : قال آدم . قال : واي انسان ولد ولم يمت : قال اخنوخ . قال واي حي مات ولم تفسد جيفته بالنتن ؟ قال : امرأة لوط التي صارت نصبَ ملح .

وعلى ذكر اخنوخ اقول :

يزعم اليونان القدماء ، ان اخنوخ ، ويسميه ابن العبري حنوخ ، هو هرمس الثالث المصري ، ويلقب « تريسميجيسطيس » اي : ثلاثي التعليم ، لانه كان يصف الباري تعالى ، بثلاث صفات ذاتية : هي الوجود والحكمة والحياة . وكان من قرى البهنساء من صعيد مصر . وان اخنوخ هذا تمسك بوصايا الله الطاهرة وعمل بها وتتبع الخير وصرف عن الشر مواظباً على العبادة ثلثماية سنة فنقله الله الى حيث شاء وقيل الى الفردوس .

والعرب تسميه « ادريس » لانـه كان كثير الدرس وانـه كان نبياً ومَلكاً عظيماً وحكيماً فريداً وانه أرسل من الله نبياً ومنذراً لنسل قايين ليرجعهم عن غيهم . وذكره القرآن في سورة مريم قال : « واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً . ورفعناه مكاناً علياً » . (آية

٥٦ و ٥٧) .

ونما عدد الرهبان بقرب اخيم نمواً عجيباً حتى اضطر القديس باخوميوس الى بناء دير ثالث دعاه دير « مينة » ورأس عليه بترونيوس. وكان موقع هذا الدير بجوار دير طسي Tsi .

وزاد على الاديرة الثلاثة المجاورة لاخيم ديراً رابعاً جعله للعذارى المتزهدات واقامه قرب دير مينة فازهر بعد قليل حتى اوى اليه نحو اربعمائة راهبة.

قيل إنَّ اسقف اخيم ، لما دعا رجلَ الله الى بناء دير في المدينة أتحفهُ بقارب قائلاً : « دونك هذ القارب لأنك في حاجة ماسة اليه » .

على ان اخيم قد زهت فيها الطريقة الرهبانية في القرن الرابع . فانها كانت وقتئذٍ مدينة حافلة بالسكان غنية بمرافق العيش . غير ان صروف الدهر قد ثقلت وطأتها على هذه المدينة التاريخية فلم تكد تبقي شيئاً من ابنيتها القديمة التي لا يسع المقام وصفها باسهاب الآن . غير ان الاهلين بنوا بعد باخوميوس اديرة عديدة منها الدير المعروف بدير الحديد والعامَّة تدعوه الدير الابيض . ومثله آخر يدعونه الدير الاحمر ، وغيرها . ومنها ما اتخذه الفلاحون كمسكن يأوون اليه الآن .

ويقول الرواة : ان في مدافن اخيم القديمة التي ترى في سفح الجبل شرقاً وجدت مئون بل الوف من جثث النصارى المحنَّطه . وفيها الى يومنا هذا جم غفير من النصارى . و كلهم معروفون بنشاطهم ولطف اخلاقهم . وقيل ايضاً : ان النجارين يصطنعون توابيت الموتى مجاناً لكل اهل ملّتهم .

اسنا

بعد ان نشر القديس باخوميوس العيشة النسكية في جهات الشمال

ألهمه الله في الرؤيا ان ينشىء له اديرة في الجنوب فسار الى «طيبة» ومنها الى اسنا حيث كان الله منّ عليه بالتنصّر . فاخذ ينشىء ديراً عند جبلها المعروف عند اليونان باسم « پخنوم » وبالقبطية « فنوم » . اما العرب فيسمّونه « أبنوم وبهنوم ثم ابنوب »

وقد لقي القديس في سبيل مشروعه هـذا اعتراضـات شتى من اسقف المدينة . وتحزب اهل البلد عليه . غير ان وليّ الله صبر على البلاء فاتاه ربُه بالفرج وتمكن من اتمام ديره . وكان ديراً متسع الارجاء محكم البناء اقام عليه كرئيس رجلاً فاضلاً يدعى ساويرس .

وبعد زمن اجتمع اساقفة تلك الناحية و كهنتهـا للنظر في امور الدين فاستقدموا الانبا باخوميوس الى كنيسة اسنا والقوا عليه عدة اسئلة ليتحققوا صحة ما يخبر عنه من المعجزات كمعرفة اسرار القلوب والانباء بامورٍ مستقبلةٍ الى غير ذلك مما كان يتناقله النـاس بصدده . فاجاب ولي الله بكل حكمة ورقة على هذه الاسئلة .

ولما استأثر الله عبده باخوميوس في السنة السابعةوالخمسين من عمره في دير فاو سنة ٣٤٦ وقال غيرهم سنة ٣٤٨ قام بجنازته تلميذه تادرس ودفنه في الجبل المجاور للدير . ثم نقله خفية الى محل آخر كما كان القديس اوعز اليه . وكان تادرس يأتي ليلاً ويصلي عند قبره الجديد ، دون ان يعلم به احد من الاخوة . وقد بقي مدفن باخوميوس مجهولاً الى يومنا. ولعله في احدى المغـاور بين الصخور في الجبـال الرملية . او عند حضيض الجبل الذي يعلو السهول المجاورة للنيل او في تلك الارباض .

وكان القديس انطونيوس لم يزل وقتئذٍ على قيد الحيـاة . فقال عنه: « لما ألهمني الله الترهب لم يكن بعد اديرة يجتمع فيها الرهبان تحت قيادة رئيس يعنى بأمرهم . بل كان العباد ينقطعون الى المعيشة النسكية ،

كل واحد بمعزل عن غيره حتى قام ابو كم باخوميوس وباشر هذا العمل الخطير بأيده تعالى ». فهذا لعمري ثناء طيب على باخوميوس منشئ الاديرة الاولى في مصر ، وقد بلغ عددها تسعة اديرة للرجال ، وديرين للنساء . وموقعها كلها في وادي النيل بين اخيم شمالاً واسنا جنوباً .

خلاصة القول

لو اردت ان اشيد بذكر مآثر هذا القديس العظيم باخوميوس لما كفتني الساعات الطوال ، فانني ما بقي الى حين. بيد انه لا بد لي من ذكر هذه العبارة التي وردت في التاريخ وهي: « لما تقاطر المسيحيون من كل فج وأوب الى تلك القفار ، وعمروا فيها اديرة اشبه بقرى واسعة او مدن زاهرة انقطعوا فيها الى خدمة الله . وكان عددهم لا يزال ينمو مع الايام حتى ان الدير الواحد كان يشتمل على اربعة آلاف او خمسة آلاف راهب او اكثر ، خيف من ان حواضر مصر تصبح قفراً بعد هذه المهاجرة العجيبة ». فوادي النيل اذن كان اول مهد للحياة الرهبانية التي ازهرت في ارض الفراعنة مصر قبل ان تمتد فروع هذه الدوحة اذ بسقت ونمت في انحاء اخرى من المعمور . فالفضل في ذلك كله يعود ولا شك الى القديس باخوميوس الذي بشفاعته نطلب الى الرب ان ينشر في كافة المعمور روحه وايمانه القويم ، بفضله العميم .

نادرة

قد عرف في كتب العرب باسم دير (كذا) عدة ديارات واما كن كثيرة العدد ذكرها ياقوت الحموي وابن الاثير والمقريزي وغيرهم. وقد جمعتها مرتبة على حروف المعجم. ثم عن كل مديرية وعن كل مركز. وهي محفوظة عندي. قال المؤرخ :

دير حزقيال — ذكره ياقوت ولم يذكر مكانه. قال الراوي: بينما انا ادور به اذا بكتابة مسطورة على اسطوانة منه فتقدمت وقرأتها فاذا هي:

رُبَّ ليل امَدَّ من نَفَسِ العا م شق طولاً قطعته بانتحابِ
ونعيم كوصل من كنت اهوى قد تبدَّلته ببؤسِ العقاب
نسبوني الى الجنون ليُخفوا ما بقلبي من صبوةٍ واكتئاب
ليتَ بي ما ادَّعوه من فقدِ عقلي فهو خير من طول هذا العذاب

وتحته مكتوب :

هويتُ فمُنعتُ، وشُرِّدتُ وطردتُ، وفُرِّق بيني وبين الوطن وحُجبتُ عن الإلف والسكن، وحبستُ في هذا الدير ظلماً وعدواناً، وصفِّدت في الحديد زماناً.

واني على ما نابني وأصابني لذو مِرَّةٍ باقٍ على الحدثان
هو الحب افنى كل خلق بجوره قديماً ويفنى بعدي الثقلان

قال: فسألت عن صاحب القضية، فقيل لي: هو شاب هوي ابنة عمه فحبسه عمه بهذا الدير. وعزم على حمله الى السلطان لئلا تفتضح ابنته. ثم مات عمُّه، فورثه هو وابنته. فجاء اهله واخرجو الفتى من الدير وزوجوه بها.

شارع الفجاله رقم ٦٤ بمصر نعوم طاماز

عود على بدء

فصل

في احوال مصر والمصريين قبل المسيحية

كنت اعددت هذه الفذلكة كمدخل الى المحاضرة . ولكن حال ضيق الوقت دون القائها . فرأيت في نشرها ، ولو متأخرة عن البداية ، خير من اهمالها لما فيها من فائدة لمستفيد .

قيل : اول من سكن ارض وادي النيل ، هو مصرائيم بن حام ابن نوح ؛ جاءها هو وبنوه ومن بعدهم من القبائل الاسيوية عن طريق البحر الاحمر ، واستوطنوها وعمروها . ودعوا سكان وادي النيل « مصريين » نسبة اليه .

ويدعوا الافرنج هذه البلاد Egypte نقلاً عن اليونانية Αιγύπτος عن الكلمة المصرية « هاكابتاح » Ha-Ka-Ptah ومعناها معبد الاله « بتاح » الذي كان معبود « مِنف » عاصمة مصر .

وقال المستشرق الشهير « جبونسكي » ان القبطية مشتقة من المصرية وان اللغتين متشابهتان شبه الثمرة بالثمرة .

وقال غيره ان دار القبط منسوبة الى « قفط » لانها اقرب مدن وادي النيل الى البحر الاحمر .

دلّت صور المصريين القديمة الملونة المرسومة على مدافنهم ، بايدي حذاق هذا الفن منهم ، على كثير من صفات المصريين الخلقية ومميزاتهم الادبية ومنها البِشر واللطف والصبر على الشدائد . اذ ترى الاشخاص

المرسومة صورهم على تلك الآثار في الغالب، جذلين متهللين، ضاحكين. وان ما نطقت به آثارهم من دلائل الدعة والرقة قد وجد مجسماً فيما وجدوا من ادراجهم كرسائل الاخلاق والادب التي كشفت عما كان بينهم من العلاقات. اذ لا يخلو واحد من هذه الادراج، من ذكر صفات ادبية حسناء: كالعطف على الضعيف، وحب الوالد لاسرته، وطاعة الابناء لوالديهم، حتى ان رب الاسرة ما كان يرمي الى بسط سلطانه على اعضائها بالقوة والارهاب، بل كان يسعى الى ذلك من طريق الحب وحسن المعاملة.

ميزاتهم العقلية: امتاز المصريون بالنبوغ والتفوق العقلي. فقد كانوا مهرة اذكياء مقتدرين في الابتكار والاستنباط. وقد برع خاصتهم في العلوم اللاهوتية والبحث فيما وراء الطبيعة.

ومما اجمع عليه المؤرخون وذكروه بالاعجاب ان الصفات والمميزات الخَلقية والخُلقية لا تزال ظاهرة ظهوراً واضحاً في القرويين الذين هم السواد الاعظم من مصريي هذا العصر، وخصوصاً قرويي الوجه القبلي، كما كانت اسلافهم، رغم اختلاطهم بالغرباء من بابليين واشوريين وفرس ويونان ورومان واتراك وغيرهم.

الديانات قديماً: قيل: ان مصرائيم حمل معه الى مصر عبادة الاله الواحد نقلاً عما تعلمه بالتلقين من ابيه وجدّه. فبقيت هذه العبادة معروفة بين ذراريه احقاباً عدة. ثم اخنى عليها الدهر، فتضاءلت وتولت شيئاً فشيئاً عن اصلها الى ان باتت بحيث يحسبها الناظر عبادة وثنية في كل مظاهرها الخارجية.

وقام بين الكتاب اليونان والرومان من قال: ان عبادة الحيوانات وثمار الارض هي لبُّ الديانة المصرية. واتّهم تلك الامة المجيدة بالجهل

لانها ، على ما زعم ، كانت تعبد الاوثان . غير ان الباحثين المدققين تولوا نفي هذه المزاعم عندما تجلت لهم الحقيقة في خلال درس الآثار. وهي ان الديانة المصرية في اوائل نشأتها كانت قائمة على عبادة اله واحد مثلث في صفاته . واليك ما حققه بعض العلماء تأييداً لذلك .

قال هيرودوتس اليوناني ابو التاريخ : « ان اهل « طيبة » كانوا يعرفون الاله الواحد الذي لا بداية له الحي الابدي » . وقال بورفيرس احد فلاسفة المدرسة الفلسفية بالاسكندرية في الجيل الثالث بعد المسيح : « ان المصريين كانوا يعرفون الهاً واحداً » . واسفرت ابحاث العلامة جامبليكس من فلاسفة الجيل الثالث ايضاً عن : « ان المصريين كانوا يعبدون الهاً هو سيد العالم وخالقه ، غير مادي ، ولا جسد له ، غير مخلوق ولا منظور . » الخ . والعلامة « بروكش » (Brugsh) الالماني عثر من ورآء ابحاثه على نصوص تدل كلها على عبادة الاله الغير المنظور الابدي السرمدي » .

وكانوا يعتقدون بوجود نعيم وجحيم او ثواب وعقاب . ثم اخذوا يقولون بوجود التقمص . فقال هيرودوتس : « ان الشعب المصري هو اول من قال : ان نفس الانسان خالدة وانها عندما تفارق الجسد تدخل جسد حيوان وتتقمص على التوالي في جميع الاجسام الحية التي في الارض وفي الماء والهوآء . ثم تعود الى شكلها الانساني ، بعد ما تقضي في هذا التقمص ثلاثة آلاف عام » .

وقد اخذ افلاطون عنهم هذه العقيدة وكان يعلم ان النفس بعد ان تمر بثلاث تجارب متماثلة تصير بارة فتعود الى الاله مصورها الاصلي . اما النفس الشريرة فتدخل اجساماً اخرى مدة آلاف عديدة من السنين قبل وصولها الى الاحضان الالهية » . واثنى على ذلك هوميرس في

البائدة . ولذلك اخذت عبادة الاله غير المنظور تتحول عن اصلها بمرور الزمن . فاتخذوا لهم آلهة اخرى من قوات الطبيعة ومن الخلائق الدنيا جعلوها كمظاهر لصفات الاله الواحد . فمثلاً الاله « فتاح » اله الشمس ويمثل قوة الابداع . والاله « هابي » اله النيل ويمثل صفة الوجود . والاله « اوزيريس » اله العالم الآخر وقاضي الاموات ويمثل انتصار الفضيلة .

وجعلوا مع تلك الآلهة الرمزية حيونات مقدسة كالثور « لفتاح » ، والكبش « لخيتمو » ، والقط « لرع » ، والصقر « لهورس » ، الى غير ذلك . واشهر الحيوانات التي عبدت هي العجل (Opis) في « منف » . فكانوا يعتقدون بتجسد « ابيس » من عجلة بكر بعد حلول روح الاله « فتاح » فيها . وهذه العقيدة تلمع الى عقيدة التجسد .

وكانت عقيدة التثليث عند المصريين (اي تمثيل الاله بشكل ثلاثة اقانيم) محور الديانة المصرية القديمة . فكان عندهم عدة ثواليث ، لكل مدينة هامة ثالوث خاص بها . واهمها ثالوث « ابيدوس » (حيث الآن بلدة العرابه المدفونة بمديرية جرجا) ، مؤلف من « اوزيريس » الاب ، و « إيزيس » الام ، و « هوروس » الابن . وانهم وان كانوا ثلاثة فانهم يعملون معاً .

وكانت الالهة جميعاً تشترك في علامة واحدة اشبه بعلامة الصليب المحاط بدائرة واسمه بالمصرية (عنخ) . كان يحمله كل اله بيده رمزاً للحياة .

وكان الكهنة هم خُدّامَ الالهة ، وكتمةَ اسرار الاله العظيم ، والشفعاء لدى العرش ، والوقفين على اسرار العالم المجهول ، والمقدّرين لحظوظ البشر ، وبأيديهم مفاتيح المعرفة . فكان نفوذهم عظيماً وسلطتهم نافذة ولهم الاملاك الواسعة والغنى الوفير . وقد قام كهنة مصر بأجل

الخدمات للامم القديمة إذ تخرج على ايديهم العلماء والفلاسفة . وكفاهم فخراً ان موسى النبي تهذب بحكمتهم .

قلنا ان المصريين كانوا يعتقدون بخلود النفس وبحياة اخرى بعد الموت . فمن الادلة على هذه العقيدة تحنيط الاجسام واحاطتها بالتعاويذ والتمائم وتموينها بشيء من المأكل ، ثم دفنها في مأمن من الحيوانات المفترسة كالاهرام والنواويس والقبور الحجرية وغيرها .

انتشرت الوثنية في الديار المصرية منذ عهد « مينا » رئيس الاسرة الفرعونية الاولى ، ثم استمرت سائدة حتى حكم الفُرس فالبطالسة فالمدة الاولى من حكم الرومان ، وكانوا كلهم وثنيين .

ترى مما تقدم ان المصريين في عصورهم الاولى عبدوا الاله الواحد الذي عبده ادم وذريته . ثم نوح وبنوه وبنو بنيه . الى ان تحولت هذه العبادة عن اصلها بمرور الزمن . ولكن عقيدة هذا الاله الواحد بقيت معروفة دائماً لدى كهنتهم حتى دوّنوها في مخطوطاتهم .

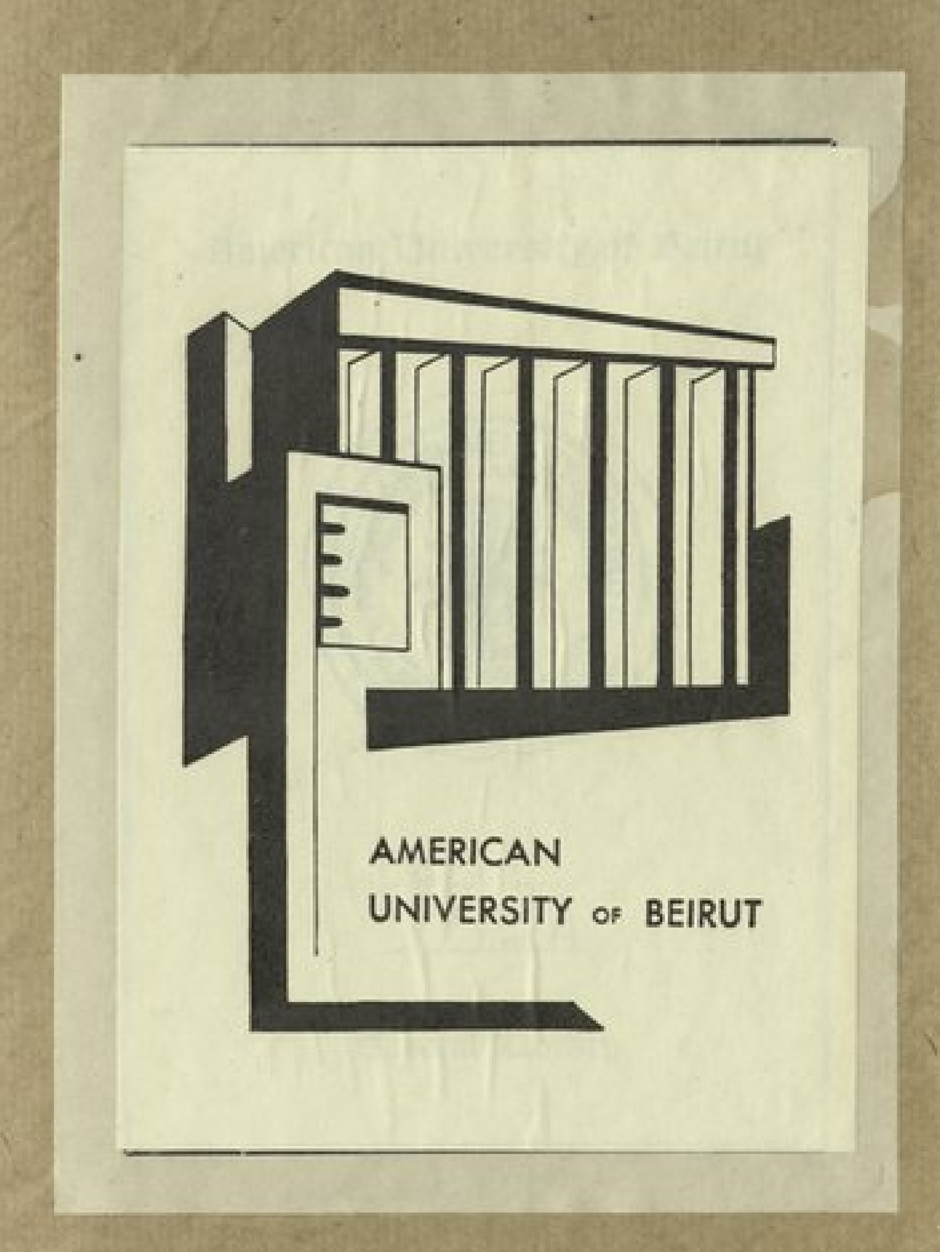
ومن اعجب الامور ان ما كان يعرفه نوح واولاده عن الذات الالهية ، وعن التجسد ظل اثره بادياً في ديانة المصريين رمزاً الى حقائق الديانة المسيحية كما كانت الذبائح عند اليهود رمزاً لذبيحة الخلاص .

ففي سنة ٣٠ قبل المسيح دخلت مصر تحت حكم الرومان في عهد اوغسطس قيصر . وكان يحكمها ولاة من قبل هذه الدولة لادارة شؤونها المالية والعسكرية . وكانت الاسكندرية مأهولة بعدد كبير من اليهود واليونان . فكان هؤلاء يسخرون من خرافات الفراعنة والمصريون يمقتون وثنية اليونان .

وفي سنة ٣٣ لميلاد السيد المسيح ، سافر كثيرون من اليهود الاسكندريين الى اورشليم ، في عيد الفصح حسب عوائدهم ،وسموا

ورأوا محاكمة المسيح وصلبه وقيامته . ومنهم من بقي هناك الى صعوده وحلول الروح القدس على تلاميذه . ولما عادوا الى الاسكندرية خبروا بما سمعوه وبما رأوه .

وبعد بضعة سنين قصد القديس مرقس الرسول ، احد السبعين رسولاً ، شمالي افريقيا حيث بشَّر الخمس المدن الغربية (التي احداها مسقط رأسه) . وهي القيروان وارسينويا وابولونيا وبرنيقة وبتولومايس . وتجمعها لفظة «بنتابوليس» اليونانية . ثم شخص الى الديار المصرية مجتازاً الصحراء الغربية فمرَّ اولاً ببعض بلاد الوجه القبلي مبشراً ، ومنها انحدر الى بابلون حيث مصر العتيقة اليوم واقام فيها حتى سنة ٥٨ ميلادية . ثم قصد الاسكندرية وراح يبشر فيها بشريعة المسيح . فانتشر نورها في الارض وانقشع ظلامُ الوثنية . وانكشفت الشدة عن البشر بما بثَّت فيهم من روح المساواة والاخاء ، ووطدت في العالم دعائم السلم . وتبدل الخُرق بالمحبة والرفق ، ووجد الناس في شريعة المسيح طلبتهم وصلاح معاشهم ومعادهم . وترقَّت المرأة بعد الاحتقار الى مقام التكريم والايثار ، وصقلت خشنة العادات ، وصلحت بتعاليم المسيح حال النفس والجسد ، وحببت العفة الى الناس . فانحاز الى المسيحية وانضوى تحت لوائها الوفُ الوفٍ من الناس واخذ كثيرون من اقطاب العلم وارباب الفهم وذوي الثراء يحبسون اموالهم ونفوسهم على خدمة المرضى وعلى سواها من اعمال البر والتقوى . وآخرون راحوا يكفرون بالعالم واباطيله ، وينقطعون الى عبادة الله في الصوامع والاديار والدياميس والقفار .


AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT